

أبحاث تاريخية هبرية

## الإسلام في غرب أفريقيا

مدى انتشاره في تلك الأقاليم وبلغ أثره في الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تقريرا

وملوكها ووصل حتى بلدة كارسنجو بين نهري النيجر والسنغال .  
وابن بطوطة رحالة عاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر ،  
وقد طاف في معظم الجهات الإسلامية المروفة في ذلك الحين  
ومنها غرب أفريقيا ؛ وقد أحببت أن أنقل عنه أخبار انتقاله  
باختصار لتكون دليلاً مادياً على وصول الإسلام لتلك الجهات  
وإن كان الرجل يخلط خلطاً غريباً بين نهري النيل والنيجر ،  
ولكن له في الواقع عذره لجهل العالم كله في ذلك العصر بأواسط  
أفريقية ومتابع أخبارها . يقول ابن بطوطة :

« ثم سرنا من زاعزى فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل  
وعليه بلدة كارسنجو ؛ والنيل يتحدر منها إلى كبرة ، ثم إلى زاعة ؛  
ولكبرة وزاعة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالى ... وأهل زاعة  
قدماء في الإسلام ولهم ديانة وطلب العلم ؛ ثم يتحدر النيل إلى  
تنيكتو ، ثم إلى كوكو ، ثم إلى بلدة مولى من بلاد الليميز  
— وهي آخر عمالة مالى — ثم إلى يوفي ، وهي من أكبر بلاد  
السودان ، وسلطانها من أعظم سلاطينهم ؛ ثم يتحدر إلى بلاد  
النوبة وهم على دين النصرانية ؛ ثم إلى دنقلة ، وهي أكبر بلادهم  
وسلطانها يدعى بابن كنز الدين أسلم أيام الملك الناصر ؛ ثم يتحدر  
إلى جنادل ، وهي آخر عمالة بالسودان ، وأول عمالة أسوان من  
صعيد مصر »

« ثم سرنا من كارسنجو فوصلنا إلى نهر سنغرة ، ثم رحلنا  
إلى بلدة ميمة فنزلنا منها على آبار بخارجها ، ثم سافرنا منها إلى  
مدينة تنيكتو ، ومن تنيكتو ركبنا النيل في مركب صغير منحوت  
من خشبة واحدة ، ثم سرت إلى مدينة كوكو وهي مدينة كبيرة  
على النيل ؛ ثم سافرت منها إلى تكدا ، ووصلنا إلى كاهر من بلاد  
السلطان التكركري ؛ ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوماً في برية  
لا عمارة فيها إلا أن بها الماء ، ووصلنا إلى الموضع الذي يفرق به  
طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق ثوات ، وسرنا من هنالك  
عشرة أيام ووصلنا إلى هكار وهم طائفة من البربر ملتصون ، وسرنا  
من بلاد هكار شهرا ، ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برار ، ثم  
وصلنا إلى بودا وهي من أكبر قرى ثوات ، وأقمنا بيودا أياماً ثم  
سافرنا في قافلة ، ووصلنا في أواسط ذى القعدة إلى مدينة  
سجلاسة ... الخ<sup>(١)</sup> »

بدأ الإسلام في شبه جزيرة العرب ... ومنها انتشر سريعاً  
في مختلف أنحاء العالم فوصل إلى الصين شرقاً امتد إلى الأندلس  
والمحيط الأطلسي غرباً . وأبنا وصل الإسلام نشأت حضارة إسلامية  
جديدة أخذت عناصرها من حضارة الإقليم الهرمة المحطمة ومن  
حضارة الدين الجديد وتعاليمه ... ثم استقرت هذه الحضارات ،  
كل حضارة في إقليمها الخاص بها ... وظهرت لها بمرور الزمن  
ميزات خاصة ... ولكن هذه الحضارات كانت تتصف بصفات  
مشتركة تجتمع فيها عند نقطة واحدة تميزها جميعاً ... تلك هي أنها  
حضارات إسلامية

وفي كل بلد من هذه البلاد الإسلامية وجدت معاهد للعلم ونشأ  
العلماء في كل فن ... ونبغوا ... ورحلوا ... ونشروا دينهم ...  
وكتبوا الكتب تتحدث عن كل علم وفن ... ونصف كل قطر  
عرفوه أو رحلوا إليه أو نقلوا إليه دينهم ...

وكانت بلاد المغرب إحدى تلك الأقاليم التي انتشر فيها الإسلام  
وإحدى تلك الأقاليم التي نشرت الإسلام في طول الصحراء وعرضها  
حتى وصل إلى حدود الكرون جنوباً وإلى شاطئ المحيط الأطلسي  
غرباً ... وقد تحدث المؤرخون الإسلاميون عن هذه الجهات  
في كتبهم ورحلاتهم ...

فأبو عبيد البكري الأندلسي وابن فياض الأندلسي وابن  
خرداذبة كلهم يتحدثون عنها وعن حدودها فيقولون : « فأول  
بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومي مدينة أنطابلس المروفة  
ببرقة ، وآخرها مما على ساحل البحر الأعظم مدينة طنجة ، وطنجة  
هذه آخر بلاد المغرب المحقق وما بعدها من البلاد فإنما هو في  
الجنوب إلى أن يأتي بلاد الحبشة والهند ... »

أما ابن بطوطة فقد جاب الصحراء المسلمة واتصل بقبائلها

(١) رحلة ابن بطوطة — طبعة وزارة المعارف سنة ١٩٣٣ من ٣٠١

٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣

ومن هذا نرى أن ابن خلدون في وصفه للبلاد أدق بكثير من غيره من كتاب العرب ؛ وتبدو لنا دقته من وصفه لتفرع بحر الروم من البحر المحيط ، وتبدو لنا دقته بوضوح بعد هذا بقليل عند ما يتبع العرق حتى يصل إلى النيل . وسيدو لنا ابن خلدون أكثر دقة عند كلامه عن شعوب البربر ، وقد أردت أن أبدأ بوصف جونستون لهذه الشعوب ثم أتبعه بوصف ابن خلدون ؛ وسنرى بعد قراءة الوصفين أن ابن خلدون على تقدم عصره كان أجمل وصفاً وأدق تمبيراً من جونستون . ولا غرو فإن خلدون ابن تلك الفياقي والبلاد . وسنأتي الآن بتقسيم جونستون لمجمعات البربر : في أوائل القرن السابع كان الجنس الليبي أو بربر شمال أفريقيا الذين كانوا يسكنون كل المنطقة الواقعة بين الحدود الغربية لمصر ( بعد واحة سيوة ) شرقاً وساحل مراکش غرباً ينقسمون إلى : -

(١) البربر الشرقيون أو الليبيون ( لوآنا Luota وهوارة Huore وأوريفا Aurijgha ونفوسة Nefuse ) ويسكنون تيرينيقا وطرابلس وتونس وجزءاً من شرق الجزائر

(٢) البربر الغربيون أو صنهاجة Senhaga وكانوا يشغلون سواحل الجزائر وغربها وكل مراکش حتى يصلوا إلى حدود الصحراء جنوباً

(٣) زناتة Zeneta وهم أقم لونا وقد انحدروا من Getulians وقد يتصلون في الأصل بالغولا الذين سكنوا في القرن السابع أجزاء كانت تقل أو تكثر من الإقليم الصحراوي جنوب الجزائر وتونس ومراكش ومن زناتة انحدر البربر المزاب Mzab Berbers الحديثون وقبائل الورجلي Wargli People وبنو مرين Beni Merin الذين أسسوا أسرة حكمت البربر فيما بعد

وقد دُفع كثير من زناتة السود إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط في فترات مختلفة ، كما أن كثيرين من البربر الشرقيين أو الليبيين قد دفعوا إلى قلب الصحراء تحت تأثير العرب الفاتحين ومنهم نشأت مزرقة الطوارق فيما بعد . وكذلك هاجر كثيرون من البربر الغربيين أو الصنهاجيين في القرن السابع إلى الصحراء جنوباً واستقروا شمال نيجريا وشمال حدود السنغال فليس هناك من شك أن كلمة زناجا Zenaga ( اسم قبيلة من قبائل

وهو إذ يتحدث عن معدن النحاس ص ٣٢٠ يقول أو يحملون النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار - وإلى غاي - وإلى بلاد برنو وهي على مسيرة أربعين يوماً من تكدا أهلها مسلمون ولهم ملك اسمه ادريس ... »

من هذا نستبين بكل وضوح أن أقصى ما وصل إليه ابن بطوطة غرباً هو مدينة « كارسخو » وهو في كل تلك المنطقة في طاف بها يذكر لنا أنه كان ينزل بسطان الولاية السلم ربح به ويجمعه بقضاة الولاية وعلمائها . غير أن ابن بطوطة يصل إلى شاطئ المحيط من جهة الغرب في حين أن الإسلام ان منتشر في دغانة في ذلك الحين كما سنرى من قول ابن خلدون اصرا لابن بطوطة في كتابه « المغرب في تاريخ الدول الاسلامية نرب » وهو يبدأ بتحديد بلاد المغرب وغرب أفريقيا على عهده ، وله في ذلك ثقة لأنه نشأ في تونس وتنقل في معظم بلاد المغرب تلمسان وبسكرة وبجاية وغيرها . واتصل بالحكام في كل تلك قالم ، وله كتابه المشهور ( العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر )

سير المغرب كما جاءت في كتاب « المغرب » لابن بطوطة

« إن المغرب قطر واحد متميز الأقطار ، فحده من جهة الغرب البحر المحيط ، وعليه كثير من مدنه مثل طنجة وسلا وأدفو وأنتي وأسني ، وهي كلها من مساكن البربر وحواضرهم ؛ وأما حده من جهة الشمال فالبحر الرومي المنفرع من هذا البحر المحيط يخرج في خليج متضائق ما بين طنجة من بلاد المغرب وطريف من بلاد الأندلس ؛ وأما حده من جهة القبلة والجنوب فالرمال المسهيلة المائلة حجزاً بين بلاد السودان وبلاد البربر ، ويعرف عند البادية بالعرق ، وهذا العرق سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدئ من البحر المحيط وذاهب في جهة الشرق على سمت واحد إلى أن يمتد النيل الهابط من الجنوب إلى مصر فهناك ينقطع ؛ وأما حده من جهة الشرق فيختص بطرابلس وما وراءها إلى جهة المغرب مثل أفريقية والزاب والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى والسوس الأدنى والأقصى . هذا هو المغرب في العرف لهذا العهد وهو الذي كان في القديم ديار البربر ومواطنهم (١) »

(١) ( المغرب في تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب ) لابن خلدون . طبعة لايدن سنة ١٨٤٨ . ص ١١٨ وما بعدها

البربر) قد أخذت من صنهاجة ثم حرف البرتقاليون زناجافيا بعد فأصبحت « ستغال » (١)

وفي القرن السابع كذلك كانت هناك علاقات تجارية بين زنوج الجارامنت Negroid Garamantes وبين جنوب وشرق ليبيا ووصلت هذه العلاقات حتى كانم وبحيرة شاد ودارفور وكردفان، فكانت هذه الطرق أكبر مسهل للعرب في فتوحهم المستقبلية للسودان وبلاد المغرب

هذا ملخص تقسيم جونتون لهذه القبائل. ولتر الآن ماذا يقول ابن خلدون في وصفها قال: « هذه الأمم السودان من الآدميين هم أهل الإقليم الثاني وما وراءه إلى آخر الأول، بل وإلى آخر العمور متصلون ما بين المغرب والشرق بمجاورون بلاد البربر بالمغرب وأفريقية وبلاد اليمن والحجاز بالوسط، والبصرة وما وراءها من بلاد الهند بالشرق؛ وهم أصناف وشعوب وقبائل أشهرهم بالشرق الزنج والحبشة والنوبة، وأما أهل المغرب فتحن ذا كروهم، وأما نسبهم فإلى حام بن نوح »

« وعد ابن سعيد من قبائلهم وأممهم تسع عشرة أمة فهم بالشرق الزنج على بحر الهند ولهم مدينة منبسة وهم مجوس ويليهم بربر، والإسلام لهذا المهد فاش فيهم ولهم مدينة مقدشوا على البحر الهندي يعمرها تجار المسلمين، ومن غربيهم وجنوبيهم الدمام وهم حفاة عمارة؛ ويليهم الحبشة وهم أعظم أمم السودان وهم مجاورون لليمن على شاطئ البحر الغربي منه؛ ويليهم البجا وهم نصارى ومسلمون ولهم جزيرة مدينة دقلة غرب النيل وأكثرهم نصارى؛ ويليهم زغاوة وهم مسلمون ومن شعوبهم تاجرة؛ ويليهم كانم وهم خلق عظيم والإسلام غالب عليهم ومدينتهم حبيى ولهم التلب على بلاد الصحراء إلى فتران؛ ويليهم عن غربيهم كوكو وبعدهم نقارة والتكرور ولوى وغنم وجابي وكوري وانكرار ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانة في المغرب »

« ولما فتحت أفريقية المغرب دخل التجار بلاد المغرب منهم فلم يجدوا فيها أعظم من ملك غانة. كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب المغرب وكانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك، وكانت تجاورهم من جانب الشرق أمة أخرى فيما زعم الناقلون تعرف

بصوصو. ثم بعدها أمة أخرى تعرف بمالي. ثم بعدها أمة أخرى تعرف بكوكو ويقال لها كانغو. ثم بعدها أمة أخرى تعرف بالتكرور. ثم إن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر اللثمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلي بلاد البربر واعتزوا على السودان واستباحوا حماهم وبلادهم واقتضوا منهم الأتاوات والجزى، وحملوا كثيرا منهم على الإسلام فدانوا به؛ ثم اضمحل ملك أصحاب غانة وتلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أهل السودان واستعبدهم وأصاروهم في جملتهم. ثم إن أهل مالي كثروا أمم السودان في نواحيهم تلك واستطالوا على الأقاليم فتلبوا على صوصو وملكوا جميع ما بأيديهم من ملكهم القديم، وملك أهل غانة إلى البحر المحيط من ناحية المغرب وكانوا مسلمين يذكر أن أول من أسلم منهم ملك اسمه « برمندانة ». ثم يذكر ابن خلدون بعد ذلك من تولى الحكم بعد هذا الملك حتى يصل إلى الملك ساكوره (سبكرة) فيقول عنه: « وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا وكانت دولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الأمم المجاورة لهم وافتتح بلاد كوكو وأصارها في ملكة أهل مالي فاتصل ملكهم من البحر المحيط وغانة بالمغرب إلى بلاد التكرور في الشرق، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وأفريقية... الخ »

هذا هو كلام ابن خلدون وقد تمدت أن أتقله في هذه السطور الكثيرة لأنه قد شرح ما ألم به ابن بطوطة وما أجمله جونتون، فن كلام ابن خلدون نستطيع أن نفهم بوضوح أى القبائل كانت تسكن في كل تلك الأقاليم، ونستطيع أن نفهم بوضوح أى هذه القبائل كانت تدين بالإسلام وإلى أى حد وصل الإسلام؛ ولكن ابن خلدون عاش في أوائل القرن الرابع عشر كما قلنا وهو إذ يتحدث عن هذه الديار يتحدث عنها كديار إسلامية انتقل إليها الإسلام من مختلف الجهات واستقر بها وأثر في أهلها، ولكننا قد تسائلنا بعد هذا: كيف دخل الإسلام إلى تلك الجهات وكيف اقتحم على أولئك الزنوج غالبهم وأحراجهم ويوتهم ومدنهم؟ وكيف أثر في الأهلين وفي عاداتهم وأخلاقهم؟ هذا ما سنتناوله الآن بالبحث